اما شوارع المدينة واسواقها فقد خُطّطت في اول سنة ١٨٩٩ ومن ذلك الحين والبناء قائم فيها على قدم وساق خصوصاً في شارع عباس وشارع كروس حيث قد تمَّ بناء اكثر الابنية واجملها ومعظمها يخص الضباط الوطنيين ومستخدمي الحكومة واغنياء تجار السودان

اما طول الشوارع وسعتها واستقامتها فحدث عنها ولا حرج فتمر في الشارع منها ست مركبات جنباً لجنب بين الرصيفين. وكل الشوارع التي قامت فيها الابنية نظيفة واهتمام الحكومة شديد بتنفيذ كل وسائل النظافة في كل احيائها

اما تجارتها ففي تقدم وقد اقيم فيها بناءان جميلان للبنك الاهلي والبنك المصري يدلك ذلك على ما لارباب الاموال من الآمال في مستقبل السودان عموماً والخرطوم خصوصاً . ولا انسى جامع الخرطوم الذي يكاد يتم بناؤُهُ في ساحة واسعة في قلب المدينة فقد وقفت انظر اليهِ مدة متعجباً بجمالهِ وفخامة بنائهِ . ويحيط بالخرطوم من الجهة الجنوبية والغربية على شكل نصف دائرة ثكنات الجيش المصري وكلها في احسن المواقع الطيبة الهواء

وهواء الخرطوم جيد ويشتدُّ فيها الحرّ بين ابريل واكتوبر وكثيرًا ما تثور فيها ريح السموم في الفصل المذكور فترفع الرمال الى طبقات الجوّ وتغطي المدينة بطبقة كثيفة من الغبار فتأوي الناس حينئذٍ الى مخادعها وتقفل الابواب والنوافذ لكن الغبار يدخل والابواب موصدة والنوافذ مقفلة ويملأُ المخادع والاسرة . وحين تهدأُ الريح يرى الانسان منزلهُ اشبه شيء بمطحنة على كل شيء فيهِ طبقة من الغبار كثيفة

هذه هي الخرطوم الآن فكيف تصير بعد عشرين عاماً ذلك في علم العزيز الحكيم

احد قراء المقتطف

شبابنا والعمل

بحثٌ يظلُّ وان تقادمَ عهدهُ ابدًا طليًّا في الشفاهِ جديدا
ويدوم ذو العقل السليم مجرّدًا للنفع يطلبُ ما أُعيدَ مزيدا

سبق لي أن أثبتُّ في المجلد الثامن عشر من المقتطف مقالةً بهذا العنوان نفسهِ عرَّبتُها عن جريدةٍ اميركيةٍ وكان لها احسن وقعٍ عند كثيرين من الشبان . والآن رأيتُ ان أُضيف اليها مقالةً أُخرى ضمَّنتُها ما املاهُ عليَّ الاختبار ونبَّهني اليهِ كثيرون ممَّن عنوا بهذا الموضوع الخطير والبحث الجليل واذا صحَّ ما ارتأيتهُ فيها

كانت المدارس عرضةً لانتقادٍ جديدٍ لم يكن في الحسبان ولا خطر على بال المدرسين . وها انا اعرضها على ذوي الالباب ولهم فيها رأيهم الموفق الى الصواب

تنبئنا الاحصاءات الرسميَّة للمواليد والوفيات والدخل والخرج ان معظم الامم في نموٍّ وتكاثرٍ والغنى على توفُّرٍ وازدياد والاعمال كلَّ يوم يزداد نطاقها امتداداً ودائرتها اتساعاً قضاءً لما يجدُّ من الحاجيات ويحدث من التأنُّق في الكماليَّات ومع ذلك ترى كثيرين من الشبان في العالم عموماً وفي شرقنا خصوصاً بطَّالين لا عمل لهم او عاملين ولكن باجرة بخسةٍ وراتب قليلٍ ان بلَّغهم الكفاف من الرزق واغناهم عن السؤال لم يمكِّنهم من اقتصاد شيءٍ يشغلون به فراغ الكيس احتفاظاً بالناموس الطبيعي القائل « ان لا فراغ في الكون »

والشبان الذين نعنيهم على الخصوص بهذه المقالة هم الذين تربَّوا في المدارس العالية ونالوا نصيباً كبيراً من العلوم والمعارف التي تسهِّل عليهم الطريق الى تعاطي اعمالٍ كثيرة وامتهان حرفٍ متنوعة . هؤلاء تجد اكثرهم على ما ذكرنا وترى الاعمال قريبةً منهم وابواب النجاح غير بعيدة عنهم فيأخذك العجب من هذا التناقض وتودُّ استجلاء الحقيقة والوقوف على السبب وتظنُّ ان محادثتهم في هذا الشأن تنيلك المراد وتمكنك من معرفة علة بطالتهم وعدم نجاحهم

ولكن اذا طارحتَهم السؤال لم تظفر منهم بجوابٍ يقضي لبانتك لأنهم في الغالب يشبعونك تأفُّفاً وتذمُّراً ويوشكون ان يتخموك من سماع شكوى الزمان ومعاندة الايام ولو خالفتَ عقلك وحكمت بمقتضى ما سمعتَ لقضيتَ بانَّ البطالين منهم مظلومون والعاملين مغبونون مبخوسون . ولكنك ترى ايها المطالع الكريم انَّ الحقيقة التي تنشدها في هذا البحث الخطير لا تفيأُ مثل هذه السفاسف الصبيانيَّة والمخارف العجائزية . نعم إنَّ افراداً منهم لم ينالوا استحقاقهم من المناصب ولا أُعطوا ما هم اهل لهُ من الرواتب كما أنَّ آحاداً غيرهم خدمتهم الصدف وجرت رياح التقادير على إيثارهم فادركوا من المقامات والارزاق ما لم يقس بمقياس الاهلية ولا أُعطي على قدر الاستحقاق ولكنَّ هذين الفريقين خارجان عن مُقتضى القياس وحكم الاطراد فلا يبنى عليهما وجهٌ جامع ولا استنتاج عامٌّ

واذا كانت الاعمال في الكون تتوالد وتتكاثر كالمخلوقات الحية وتزداد على مدى الايام تفرُّعاً وتشعُّباً فمن مصلحة اربابها أن يفتّشوا عن العملة « بالسراج والفتيلة » ولا يُعقل أنهم يتردَّدون في قبول من يعرض عليهم الخدمة او يتأخرون عن ترقية العامل النشيط في المنصب والاجرة لانهم ينتفعون من خدمتهِ او ترقّيهِ اضعاف ما ينتفع هو منهم فليسوا من المجانين حتى يرفضوا الربح او يتقاعدوا عنهُ وهم اقدر الناس على استنباط طرق تحصيلهِ

اذًا علة البطالة وعدم نجاح كثيرين من العاملين ليست في الاعمال نفسها لانها كثيرة ولا في اربابها لانهم في احتياجٍ دائمٍ الى العمال وليس من مصلحتهم تعطيل اعمالهم . واذا كانت العلة ليست في الاعمال ولا في اربابها فلا بُدَّ ان تكون في العمَّال انفسهم لكنَّ بعضهم او اكثرهم لا يرونها فيهم او يرون جزءًا يسيرًا منها وينسبون معظمها الى الاعمال واربابها و « سوء الحظ وعدم التوفيق » وهذه المزاعم نفسها حجر عثرة في سبيل تقدُّمهم وحاجز حصين بينهم وبين النجاح الذي عبثًا وباطلاً يعلّلون نفوسهم بالحصول عليهِ

ولهذا الاعتقاد الراسخ في اذهانهم اسبابٌ مهيئة واسبابٌ عارضة فالاسباب الأُولى وهي منشأُ العلة ومدبُّ الداء نملت فيهم منذ نعومة اظفارهم واعدَّتهم لفعل الاسباب العارضة التي الَّمت بهم عابثةً لاعبة واناخت عليهم آكلةً شاربة . وفي هذا الكلام اجمال لا بدَّ من تفصيلهِ

دخل هؤُلاء الشبان المدارس الابتدائية وانتقلوا منها الى المدارس العالية التي هي في مصر وسورية على اختلاف انواعها متساوية في انَّ اكثر اساتذتها ومدرسيها رجالٌ انحصرت معارفهم بفروع العلوم التي أُقيموا على تعليمها للطلبة وليس لهم اقلُّ اختبار باحوال العالم خارج ابواب المدارس فهم على جهلٍ تامّ بالصنائع ولا يدرون شيئًا مما يتعلّق بالامور الزراعية ولا يعلمون من التجارة وطرقها واساليبها اكثر من انها مصدرٌ من الفعل « تجر »

هذه الابواب الثلثة — الصناعة والزراعة والتجارة — المفتوحة في العالم للكسب

والتحصيل لا يفقهُ اصحابنا المدرسون عنها حديثًا ولا يعلمون اين هي لانهم لا يرون لعينها في ابواب الصرف أثرًا ولا يسمعون عنها في باب المبتدإ خبرًا ولا يجدون لها في باقي العلوم الابتدائية والفروع العالية سكةً سلطانيةً تؤدّي اليها وان ألمُّوا ببعض المبادئ المتعلقة بها والراجعة اليها فالمامهم عقيم جديب ينقصهُ الاختبار . وغير خاف انّ العلم شيءٌ وتطبيق العملِ عليهِ شيءٌ آخر . ومعلومٌ ايضًا ان الطرق العملية للاثراء وجمع المال كثيرة لان جوف الارض محشوٌّ بمعادن الفضة والذهب وسطحها يتدفق بموارد الثروة والغنى لكنّ هذه الطرق لا يحذقها الاَّ من اختطَّها بيدهِ او درَّبهُ عليها ابوهُ او شريكهُ او ربُّ عملهِ فبلغ غايتهُ منها وامتلأت خزائنهُ شبعًا وفاضت معاصرهُ مسطارًا . أما المدرسون الذين ادركتهم حرفة الادب فانهم يحمدون الله على الفقر وفراغ « الجيوب » . ولا يعرفون طريقًا لكسب المال غير رأس الشهر الذي يتوقعونهُ اكثر مما يتوقع الصائم رؤية الهلال . ولا يدركون معنى لمثلث الجنيهات والوفها وملايينها سوى ما يعرض لهم من ذكرها في اثناء تعليمهم للطلبة بعض المسائل الحسابية والجبرية فكلٌّ منهم معنيٌّ بما قالتهُ مرَّةً

عجبتُ لمن مع الاولاد يقضي بتعليم الحسابِ لهم نهارَهْ
يجوز بهم مدى المليون عدًّا وما في جيبهِ مع ذاك بارهْ

ومن يكون هذا شأنهم فلا عجب اذا لم يستطيعوا ان يدربوا غيرهم على معرفة طرق التحصيل المادي والاكتساب المالي ولسان حال كلٍّ منهم يقول : « لو كنتُ طبيب الهوى طببت انا حالي »

على انهم عفا الله عنهم لا يقفون في الغالب عند حدّ الجهل بهذه الامور المهمة ويتركون التلامذة وشأنهم بل يسيئون اليهم على غير عمدٍ ويستأصلون من اذهانهم الاستعداد الفطري الذي غرستهُ فيهم يد الطبيعة لمزاولة الاعمال وممارسة أسباب الارتزاق فكأنهم — (والكلام بسرهم) لشدة حسدهم من المتموّلين لا ينقمون عليهم حتى على المال ايضًا واذ لا يستطيعون الى الانتقام منهم سبيلاً يعمدون الى تلامذتهم ويشربون قلوبهم كراهة الغنى ويمثلون امامهم كل يوم رواية الثعلب والعنقود وينشئونهم على

الزهد في هذه الدنيا الغرور والعالم الغدور و يستعينون بامثال الحكماء واقوال الشعراء والآيات التي أُوحي بها من السماء على اقناعهم بان المال اصل كل الشرور[1] حتى لا يعود يحضر أولئك الطلبة الاغرار من الشعر الاَّ ما كان من قبيل « تبًّا له من خادع مماذق » او « رضينا قسمة الخلاق فينا » ولا يدور على السنتهم من كلام الوحي سوى « كونوا مكتفين بما عندكم » ولا يخطر ببالهم من اقوال الحكماء غير « القناعة كنز لا يفنى » ولا تجري اقلامهم في سوى موضوع « تفضيل العلم على المال »

هكذا يملي عليهم اساتذتهم فيُلقون السمع وهم شهداء و يقادون الى تصديقهم ببساطة الاولاد وطاعة الاغبياء . و يظنون المال غولاً هائلاً وشيطاناً في صورة الفضة والذهب ماثلاً . و يتوهمون لقلة عقولهم انهم بالامانة وحدها او بالاعتصام بهذه الحقيقة — « المرء باصغريه » فقط يقضون كل حاجاتهم و يستغنون عن خاتم المارد . ولكن بعد ما يودّعون المدارس و يخرجون الى العالم و يُلقى حبلهم على غاربهم تنبّه اعصابهم المؤثرات الخارجية الى شعور جديد لم يخطر لهم قطّ ببال و يعلمهم الاختبار درساً مناقضاً لجميع الدروس التي تعلموها في المدارس . لما كانوا بعد تلاميذ كان اباؤهم او أوصياؤهم يعنون باورهم و يقضون لهم كل حاجاتهم و يكفونهم مؤونة الاهتمام بسوى الانصباب على تحصيل العلوم . اما الآن وقد بلغوا اشدَّهم وامتلكوا قياد انفسهم فلم يبقَ لهم من يحكّ جلودهم غير اظفارهم

انقشعت الغشاوة المدرسية عن عيونهم وتجلى لهم العالم بجلاهُ الحقيقي وصورتهِ الصحيحة وادركوا مبلغ الغرور الذي بلغوهُ أيام المدرسة بفضل مدرسيهم . علموا الآن يقيناً أنَّ المال ليس اصل كل الشرور كما تعلموا واستعدُّوا لان يعلّموا بل هو مصدر كل خير جارٍ على وجه الارض . مسَّت الآن حاجتهم اليهِ وشعروا بشدّة خطإِهم يوم كانوا يحكمون في محاوراتهم المدرسية بتفضيل العلم عليهِ . لقد امتحنوا الامر بانفسهم وجرَّبوهُ مراراً فلم يستطيعوا ان يتخذوا القرطاس ملبساً ولا اليراع مأكلاً ولا الحبر مشرباً ولا الكتب مبيتاً ومركباً . جالوا في بيروت ودمشق من بلاد الشام . وفي

(١) مع ان الآية تقول محبة المال لا المال نفسهُ .

الاسكندرية والقاهرة من بلاد مصر ورأوا مظاهر العمران ومجالي الغنى والثروة ووجدوا ان الاغنياء لا العلماء اصحاب الرفعة والشان والمشار اليهم بالبنان في كل زمان ومكان وتحققوا أنَّ المرء ببرديهِ لا باصغريهِ . وأنَّ الذي قالوا فيهِ قبلاً « تبًّا لهُ من خادع مماذق » يقول فيهِ كل انسان « لولا التقى لقلت جلَّت قدرته » هذا كلهُ رأوهُ واستفادوا منهُ علماً ألمَّهم جدًّا وجرَّعهم مرارةً لا ينسونها الاَّ بحلاوة الغنى. طلبوا الغنى على طريق « الاستخدام » اذ لا مال عندهم للتجارة ولا المام لهم بزراعةٍ او صناعةٍ . فتفرقوا على ابواب الحكومة والاماكن التي تدار فيها الاعمال الكبيرة وتحتاج على الدوام الى عُمَّالٍ لهم إلمامٌ بالعلوم والمعارف وبعض اللغات الاجنبية . وعرضت عليهم اعمال متعددة الاشكال مختلفة الانواع وليس لهم من الكفاءة والقدرة على تعاطيها سوى شيء صغير في ذاتهِ لكنهُ كبيرٌ جدًّا عندهم وهو الامانة التي توهموا لسذاجة عقولهم وقلة اختبارهم انها وحدها مفتاح الغنى وباب الثروة والسلم الوحيدة للرقيّ الى ذرى التقدُّم والنجاح ولما باشروا الاعمال التي أُقيموا عليها أعطوا أجرةً على قدر استحقاقهم لا على حسب انتظارهم فلم ترضهم لانها يسيرة بالجهد تكفي لسد احتياجاتهم الضرورية فضلاً عن كمالياتهم التي شعروا في الحال بشدة لزومها مجاراة للاغنياء في طرق الترف والترفُّه فتقاضوا مخدوميهم الزيادة وما لهم من مسوّغ سوى امانتهم وكثرة اتعابهم محتجين ان الاجرة على قدر العمل وان عملهم كثير فاجرتهم ينبغي ان تكون كثيرة لكنهم وهم يحاولون عرض ما عندهم من بضاعة المنطق نسوا ابسط قواعد النحو التي لا يذكر ارباب الاعمال غيرها ولذلك صححوا لهم المقدمة الأُولى بان اثبتوا فيها مضافًا محذوفًا وقالوا لهم ان الاجرة على قدر نتيجة العمل . ونتيجة اعمالكم قليلة فاجرتكم ينبغي ان تكون كذلك . والحق ان هذه النتيجة صحيحة ولو كرهها شبابنا وهي المادة الاساسية التي بني عليها دستور الترقي والتقدم او الانحطاط والتأخر في كل عملٍ خطير تحت السماء فالترقي في الاجرة والمقام والرتبة يبنى على النتيجة الحاصلة من الشغل العقلي والصادرة عن التعب الفكري والاَّ كانت الحيوانات الاليفة المذلَّلة لخدمة الانسان في جرّ الاثقال ونقل الاحمال أولى من كل انسان بارفع منصب واعلى اجرةٍ او على الاقلّ كان الفعلة العاملين بقواهم الجسدية احق من شبابنا

بالاجور الفاحشة والرواتب الكثيرة. هذا الفاعل يعمل في «ورشةٍ» من مطلع الشمس الى مغيبها حتى يكاد يحرق بحرّ التعب ويغرق بفيض العرق ولا يعطى من الاجرة سوى بضعة غروش بينما الناظر او المهندس يقف لا يشكو نَصَبًا ولا يكابد تعبًا ويعطى في يومهِ اما لا يأخذهُ ذاك في شهرهِ

هذه الحقيقة المهمة يذهل عنها شبابنا وقلَّما يلتفتون اليها ويرفعون عيونهم الى ارباب الاعمال انفسهم او الى الذين هم فوقهم رتبةً وراتبًا ودونهم بحسب زعمهم تعبًا ومشقةً ويريدون أن يُساووهم في ذلك كلهِ ولا يذكرون ما قاساهُ هؤلاء من التعب والمزاولة قبلما بلغوا الدرجة التي هم فيها الآن

وكثيرًا ما يظنُّ شبابنا انَّ طريق الغنى والمعالي مفروشة بالمخمل ومسوَّرة بالرياحين والازهار فيرون الذين بلغوا نهايتها وادركوا نتيجتها فيحسدونهم على حالتهم الحاضرة وتشرئبُّ اعناقهم الى مشاركتهم فيها مباشرةً دون ان تدمى لهم قدم او يخدش بنان بكُدى المشاق واشواك الاتعاب

وشرٌّ من هذا وذاك أن فريقًا منهم يؤثر البطالة على الجري بموجب الدستور النظامي الذي سبق لنا الاشارة اليهِ وفيما هم يظنون انهم ينتقمون من ارباب الاعمال واصحاب الاموال يتحول انتقامهم اليهم وينصبُ جام كيدهم عليهم وكم جنت على اهلها براقش. وكل يوم نرى بعيوننا ونسمع بآذاننا حوادث او احاديث منقولةً عن شبَّان استسلموا للنزق والطيش والاغترار وطلَّقوا الثبات والحزم والاصطبار. وآثروا البطالة على العمل مستجيرين من الرمضاء بالنار

ومن لا يعمل الاَّ ليظفر من حضيض الفقر الى يفاع الغنى وهذه الطفرة محال فلن يعمل ابد الدهر واذا كان العمل بركة للانسان فالبطالة شرٌّ لعنةٍ تحت الشمس وخير نصيحةٍ يختم بها كلامنا ان الاكتفاء بالامانة شرٌّ من الخيانة وتوقُّع زيادة الاجرة على عملٍ لم تزد نتيجتهُ ولا كثرت فائدتهُ هو السرقة بعينها. وزجر المدرسين عن بذر مثل هذه المخارف في اذهان التلاميذ من اهم الواجبات. وطريق الغنى والتقدم مفتوحة امام كل شابٍّ تدرَّع بالحزم والعزم وتذرَّع بالصبر والثبات

اسعد داغر